

الدرس البلاغي ودوره في التنمية المجتمعية

الطالبة الباحثة حسناء زين العابدين
ZINEELABIDINEHASNAA@GMAIL.COM

جامعة مولاي إسماعيل الراشدية
المملكة المغربية

الملخص:

يسعى الدرس البلاغي الحديث إلى تجاوز الطابع التقليدي القائم على حفظ المصطلحات والقواعد، ليتحول إلى أداة فاعلة في بناء التنمية المجتمعية. فالبلاغة لم تعد مقتصرة على دراسة الصور البيانية والمحسنات البديعية، بل أضحت وسيلة لتنمية مهارات التواصل والإقناع والتفكير النقدي لدى المتعلمين. فمن خلال تحليل الخطابات والنصوص المختلفة، يكتسب الفرد القدرة على فهم الرسائل الإعلامية والثقافية وتمييز أساليب التأثير والتوجيه، مما يعزز وعيه الفكري والاجتماعي. كما يساهم الدرس البلاغي في ترسيخ القيم الإنسانية، مثل الحوار والتسامح واحترام الآخر، إضافة إلى دوره في تنمية الذوق اللغوي والإبداع الأدبي والمحافظة على اللغة العربية. ولذلك فإن تجديد تدريس البلاغة وربطها بقضايا المجتمع المعاصرة واعتماد أساليب تعليمية تفاعلية، خطوة أساسية نحو إعداد مواطن واع وقادر على المشاركة الإيجابية في تنمية مجتمعه ثقافيا وفكريا وتواصليا.

الكلمات المفتاحية: البلاغة العربية، الدرس البلاغي، التنمية المجتمعية، الخطاب اللغوي، الوعي الثقافي، التعليم التفاعلي، القيم الإنسانية، التفكير النقدي، التواصل اللغوي.

The Rhetoric Course and its Role in Societal Development

Abstract:

➤ Contemporary instruction in rhetoric has transcended its traditional Framework, which was primarily based on memorizing terminology and rules, to become an active instrument for fostering societal development. Modern rhetoric is no longer limited to the study of rhetorical figures and stylistic embellishments. Instead, it has emerged as a fundamental tool for developing communication skills, persuasive competence, and critical thinking. Through the analysis of diverse discourses and texts, learners acquire the ability to understand media messages critically and to identify strategies of process enhances both intellectual and social awareness. Moreover, the rhetoric course plays a vital role in consolidating humanistic values such as dialogue, tolerance, and respect for the other. It also contributes to refining linguistic sensibility, nurturing literary creativity, and preserving the Arabic language. Therefore, revitalizing rhetoric pedagogy and linking it to contemporary societal issues through interactive teaching methodologies is a crucial step toward preparing conscious citizens capable of participating constructively in the cultural and intellectual advancement of their communities.

مقدمة الموضوع:

لقد حظيت اللغة العربية باهتمام الدارسين والباحثين منذ فجر التاريخ، نظرا لانفرادها بخصائص صوتية وصرفية ونحوية دقيقة، وببلاغتها التي لاتقف عند حدود الجمال الفني وفهم أسرار التعبير والإقناع، بل تتعداه خدمة لتنمية المجتمعات في شتى المجالات والميادين عبر مر العصور، من خلال إحداث تحولات إيجابية في أوضاع المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وذلك باستثمار الموارد البشرية عبر "النهوض الشمولي والعقلاني الممنهج والمتكامل لكافة مكونات ومجالات ومقومات وإمكانيات المجتمع المادية منها والروحية...، واثميرها وتجديدها وتطويرها بشكل مبدع خلافا لتعدو في مستوى الاستجابة المنظمة والهادفة لكافة فئات وحاجات ومتطلبات المجتمع"¹.

إلا أن المتأمل في واقع كثير من المبادرات التنموية بلحظ وجود فجوة بين مضمونها واستجابة المجتمع لها، وهذا راجع إلى ضعف الخطاب المستخدم في التبليغ والإقناع والتوعية. ومن هنا تبرز أهمية الدرس البلاغي كمنفذ استراتيجي لتكوين الفرد فكريا وسلوكيا واجتماعيا، قادرا على فهم الرسائل الإعلامية والثقافية والسياسية وغيرها، ومميزا لأساليب التوجيه والتأثير والإقناع، ومرسحا للقيم الإنسانية من قبيل التسامح والحوار والتضامن والجمال...، فالخطيب المتمكن من علوم البلاغة نظريا وتطبيقا أقدر على تشخيص مشكلات مجتمعه وإقناع أفرادها بالمشاركة التنموية، وترسيخ قيم العمل الجماعي. وإزاء ذلك تأتي هذه الدراسة بعنوان "الدرس البلاغي ودوره في التنمية المجتمعية" محاولة الكشف عن أوجه التقاطع الوظيفي بين علم البلاغة ومفهوم التنمية المجتمعية، عبر تحويل الدرس البلاغي من مادة نظرية مدرسة إلى أداة تطبيقية تساهم في بناء مجتمع تنموي مواكب لمستجدات العصر ومتطلباته.

مشكلة البحث:

. تنطلق التنمية المجتمعية في تعريفها الإجرائي من كونها " العملية الهادفة لإيجاد تحولات في البناء الاقتصادي والاجتماعي لتوفير حاجيات الفرد الأساسية وضمان حقه في المشاركة، وتعميق أمنه واستقراره على المدى الطويل، وتستهدف توفير الاحتياجات الأساسية للفرد"². ويعد العنصر الجوهرى في هذا التعريف هو " العملية التواصلية "، إذ لا يمكن تحويل الفرد من متلق سلبي إلى شريك فاعل إلا عبر خطاب مؤثر يلامس وعيه ووجدانه وسلوكه. غير أن الوقع الميداني والدراسات التقويمية للمشاريع التنموية العربية تكشف عن إشكالية مركزية يمكن التعبير عنها ب " المفارقة الفاعلية". فعلى الرغم من ضخامة الميزانيات المرصودة، ودقة التخطيط، وتوفر الإمكانيات المادية والبشرية، فإن نتائج العديد من المبادرات التنموية تظل دون المأمول، ويتجلى ذلك في ضعف الاستجابة المجتمعية واعتماد الطابع الإخباري التقريرى الذي يخاطب العقل بالمعلومة المجردة دون أن يخاطب الوجدان بالصورة، أو يحرك الإرادة بالأسلوب والتركيب اللغوي المؤثر. وبناء عليه، تتمحور مشكلة البحث حول التساؤل الرئيس الآتي: ما مدى إسهام الدرس البلاغي في تجاوز ضعف الاستجابة المجتمعية، وتعزيز أبعاد التنمية المجتمعية المعرفية والسلوكية والوجدانية؟

¹ رهانات تنموية: رؤية سوسيوتربوية وثقافية نقدية، سلسلة شرفات، ط2 المغرب، منشورات الزمن 2014، العدد33، ص516

² الإدارة المحلية واستراتيجياتها، مصطفى الجندي، الإسكندرية، الناشر المعارف، 1987، ص 132

أهداف البحث:

- ✓ إبراز مدى إسهام الدرس البلاغي في تحقيق التنمية المجتمعية من خلال تنمية الوعي ، وتعزيز التواصل الفعال، وترسيخ القيم الإيجابية التي تسهم في بناء مجتمع متماسك ومتطور.
- ✓ الكشف عن العلاقة القائمة بين البلاغة والتنمية المجتمعية من خلال بيان أثر الخطاب البلاغي في توجيه السلوك وتنمية القيم.
- ✓ إبراز أهمية الدرس البلاغي في بناء الوعي اللغوي والتواصل في لدى أفراد الناشئة.
- ✓ توضيح إسهام الدرس البلاغي في تنمية التفكير النقدي والتحليلي لدى المتلقين والمتعلمين.
- ✓ بيان دور الخطاب البلاغي في نشر القيم الإنسانية والاجتماعية كالتسامح والتعاون والمواطنة والمسؤولية.
- ✓ إبراز دور البلاغة في الحفاظ على الهوية اللغوية والثقافية وترسيخ الانتماء الحضاري.

منهجية البحث:

تقتضي طبيعة هذا الموضوع اعتماد المنهج الوصفي التحليلي؛ إذ يقوم على وصف مفهوم الدرس البلاغي وبيان خصائصه ووظائفه، ثم تحليل أدواره المختلفة في تحقيق التنمية المجتمعية. كما يستفيد البحث من المنهج الاستقرائي من خلال تتبع النصوص والدراسات البلاغية ذات الصلة بالخطاب التربوي والثقافي والاجتماعي، واستخلاص ما تحمله من دلالات تنموية.

1. تعريف البلاغة

البلاغة لغة هي الوصول والانتهاء، وفي لسان العرب "بَلَغَ الشَّيْءُ يَبْلُغُهُ بُلُوغًا وَبَلَاغًا: وَصَلَ إِلَيْهِ وَانْتَهَى. وَالبَلَاغُ مَا يَتَبَلَّغُ بِهِ. وَرَجُلٌ بَلِيغٌ: أَي وَاصِلٌ إِلَى مَا يُرِيدُ بِعِبَارَتِهِ"¹. أما اصطلاحاً فقد عرفها الخطيب القزويني بأنها: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"²، كما عرفها الراغب الأصفهاني في قوله: "البلاغة تقال على وجهين: أحدهما أن يكون بذاته بليغاً، وذلك أن يجمع ثلاثة أوصاف: صواباً في موضوع لغته، وطبقاً للمعنى المقصود، وصدقاً في نفسه، ومتى ما اخترم وصف من ذلك كان ناقصاً في البلاغة، والثاني أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له، وهو أن يقصد القائل أمراً فيورده على وجه حقيق أن يقبله المقول له"³ والمعنى المراد من البلاغة في هذا السياق هو أن يراعي المتكلم حال مستمعه والسياق الذي يتحدث فيه، فيتلفظ بالكلام بقدر ما يقتضيه المقام والحال، فلا يطنب فيُمل منه، ولا يميز فيه فيختل المعنى، بحيث يجري المعنى في نفس المستمع بليغاً، واضحاً ومفهوماً. وتنقسم البلاغة إلى ثلاثة علوم متكاملة وهي: علم المعاني الذي يعنى بأحوال التراكيب بما يوافق مقتضى الحال، مثل الخبر والإنشاء، والتقديم والتأخير...، وعلم البيان الذي يكشف عن طرق التعبير عن المعنى الواحد بصور متعددة كالتشبيه والاستعارة والكناية والتعريض وغيرها، وعلم البديع الذي يتكلف بتحسين الكلام وتزيينه بالمحسنات البديعية، كالطباق والمقابلة والجناس والسجع.

¹ لسان العرب، ابن منظور، مادة (بلغ)، 1 ج، دار المعارف، ط1، القاهرة، مصر، ص346

² الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، ط1 منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص20

³ معجم مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني، المحقق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، 1430-2009، ط4 (بلغ) ص145

تعريف الدرس:

يرتبط لفظ الدرس بالجذر "درس" ويدل على التكرار والتعاهد والتعلم. جاء في لسان العرب: "دَرَسَ الشَّيْءُ يَدْرُسُ دُرُوسًا: عَفَا وَانْحَى"، "دَرَسَ الْكِتَابَ يَدْرُسُهُ دَرَسًا وَدِرَاسَةً: قَرَأَهُ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِالْحِفْظِ وَالْفَهْمِ"¹. والناظر في هذين التعريفين يجد أن المقصود بـ **الدرس البلاغي** هو كل ما يتلقاه المتعلم داخل الفصل من علوم البيان والبدیع والمعاني ملاحظة ووصفا وتحليلا، قصد تمكينه من إيصال المعنى إلى المتلقي.

تعريف التنمية:

تعد التنمية من الناحية اللغوية اشتقاقا للفظ النمو فقد جاءت من "فعل نما أي زاد ومن النماء أي الخير والإصلاح"²، أما اصطلاحا فقد عرفها علماء الاجتماع بذلك "التخطيط المبني على أسس علمية يهدف إلى إحداث تغييرات عميقة في المجتمع عبر نشر مبادئ العدل والمساواة والكرامة، والتي تؤثر بشكل مباشر على سلوك الأفراد، وتعزز شعورهم بالانتماء، وتبعث فيهم روح المسؤولية بشكل يضمن الأمن والاستقرار داخل المجتمع."³

تعريف التنمية الاجتماعية:

التنمية المجتمعية هي "تحقيق الرفاهية للمجتمعات، ورفع مستوى الظروف المعيشية التي تشمل تحسين الخدمات المقدمة لهم من صحة وتعليم، إضافة إلى تقوية التماسك الاجتماعي، وتعزيز الانتماء، وترسيخ قيم العدل والمساواة والكرامة والحرية."⁴ ومن خلال التعاريف السابقة، يتضح أن مفهوم البلاغة يرتبط بمفهوم التنمية التي تمس جميع ميادين الحياة، فإذا كانت البلاغة تمكن الإنسان من جمال الكلام وأسراره وكيفية التواصل والتأثير في المتلقي بهدف استمالته فكريا أو توجيهه سلوكيا، فإن التنمية المجتمعية "تنطوي على توسيع حاسم في كل مجالات القدرات الإنسانية والنشاط الإنساني وهذا يعني المجالات الروحية والفكرية والتكنولوجية والمادية... وكذا المجالات الاجتماعية والتي نغني بها تنشيط أعداد متزايدة باستمرار من البشر للمشاركة في مجالات العلاقات الإنسانية لتحقيق أهداف متجددة وأداء وظائف مستحدثة باستمرار"⁵.

2. تصنيف الدروس البلاغية المخصصة لفائدة تلاميذ الثانوي تأهيلي حسب علومها:

لقد ورد في التوجيهات والبرامج الخاصة بتدريس اللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي، نصيبا مهما من الدروس البلاغية التي يتلقاها المتعلمون بالأسلاك الثلاثة، حيث توزعت على علومها بشكل متفاوت، إذ نجد أن دروس علم المعاني قد نالت نصيبا

¹ لسان العرب، ابن منظور، مادة (درس)، ج6، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ص 210

² التنمية المستدامة مفهومها- أبعادها- مؤشرات، مدحت أبو النصر وياسمين مدحت محمد، المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة، ط1، القاهرة، 2017، ص 65

³ مفهوم التنمية، أبعادها واستراتيجياتها -المغرب أنموذجا-، نبيل متوكيل ومولود نيبينطال، مجلة حمورابي للدراسات، العدد 50، السنة الثالثة عشرة، 2024، ص 458.

⁴ مفهوم التنمية، أبعادها واستراتيجياتها -المغرب أنموذجا-، نبيل متوكيل ومولود بنطال، مجلة حمورابي للدراسات، العدد 50، السنة الثالثة عشر، 2024، ص 462.

⁵ الإدارة المحلية واستراتيجياتها، الإسكندرية، الناشر المعارف، 1987، ص 131

أكبر في مقررات متعلمي الثانوي التأهيلي، نظرا لأهميتها في تحليل الخطاب وفهم دلالات الأساليب وملاءمتها لمقتضى الحال. ثم يليها علم البيان الذي يحظى بحضور قوي في المنهاج الدراسي، إذ يبدأ تدريسه في الجذع المشترك من خلال دروس التشبيه والاستعارة والحقيقة والمجاز، ويتعمق في السنة الأولى بكالوريا ليشمل التشبيه الضمني والتشبيه التمثيلي والاستعارة التصريحية والمكنية والتبعية، باعتباره الأداة الأساس لفهم الصور البلاغية وتحليل جماليات النص الأدبي. ثم يأتي علم البديع في المرتبة الثالثة، حيث يتم التركيز عليه من خلال دراسة بعض المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية كالطباق والجناس والسجع، وذلك بغاية تذوق جمالية اللفظ والمعنى وإدراك أثرها على المتلقي. فمن خلال هذا التوزيع يتبين أن واضعي المناهج قد راعوا التدرج في تدريس علوم البلاغة، انطلاقا من البسيط إلى المعقد، ومن فهم المعنى إلى تذوقه، بما يضمن للمتعلم امتلاك الأدوات المنهجية اللازمة لتحليل النصوص الأدبية وتذوقها. ولعل هذا ما يؤكد برنامج الدروس اللغوية:

➤ **الجذع المشترك:** لقد افتتح مؤلفو الكتاب المدرسي مكون علوم اللغة بدرسي "بلاغة الامتناع" و"بلاغة الإقناع"، كمدخل منهجي لتدريس الظاهرة البلاغية، سعيا إلى الإحاطة بالدرس البلاغي في بعده الجمالي والحجائي من أجل استثماره في تحليل الخطاب وتفسير أبعاده الدلالية والتأثيرية بصفة عامة، والنصوص القرائية خاصة. بما يمكن المتعلم من إدراك العلاقة الجدلية القائمة بين الشكل والمضمون في النص الأدبي. لينتقل بعد ذلك إلى التفصيل في بعض الدروس البلاغية التي سنقوم بجردها بحسب علومها الثلاثة:

• **علم البيان:** التشبيه: تعريفه وأركانه/ أقسام التشبيه: مجمل - مفصل - مرسل - مؤكد - بليغ/ الحقيقة والمجاز/ الاستعارة: تعريفها وأركانها.

• **علم المعاني:** الخبر والإنشاء/ أغراض الخبر/ خروج الخبر عن مقتضى الظاهر.

• **علم البديع:** الجناس/ السجع/ الاقتباس/ الطباق والمقابلة.

➤ **الأولى بكالوريا علوم إنسانية:**

• **علم البيان:** التشبيه الضمني/ التشبيه التمثيلي/ الاستعارة التصريحية والمكنية/ الاستعارة الأصلية والتبعية/ المجاز العقلي/ المجاز المرسل وعلاقاتها/ الاستعارة المرشحة والمجردة.

• **علم المعاني:** القصر/ الفصل والوصل/ الإيجاز والإطناب والمساواة.

➤ **الأولى بكالوريا علوم مسلك العلوم والتكنولوجيات:**

• **علم البيان:** الاستعارة: تعريفها وأركانها.

• **علم المعاني:** الاستفهام/ الأمر والنهي/ التمني.

• **علم البديع:** الطباق والمقابلة.

3. **العلاقة بين البلاغة والتنمية المجتمعية**

لقد ارتبطت البلاغة بنشأة المجتمعات الإنسانية، فكانت وسيلة لتنظيم الحياة الاجتماعية وتأمين الرفاهية لأفرادها. عبر نشر الأخلاق وقيم العدالة والمسؤولية الجماعية، بفعل التواصل وبناء المعنى والتأثير في المتلقي. بغية بناء الوعي الفردي والجماعي

والإسهام في معالجة القضايا المجتمعية وتعزيز قيم الحوار والتعايش. ذلك أن التنمية المجتمعية لا تتحقق بالموارد المادية والمؤسسات وحدها، بل تتطلب الإنسان الواعي القادر على التواصل، والحوار، والإقناع، والنقد والمشاركة الفعلية في توجيه الشأن العام. وهذه القدرات جميعها ترتبط بالكفايات البلاغية التي تمكن الفرد من فهم الخطابات وتحليلها ومساءلتها، والتعبير عن أفكاره بوضوح وسلاسة، ومناقشة آراء غيره بالحجة والدليل، فيكون بذلك أكثر قدرة على الاندماج في محيطه والمساهمة في تنميته. وعليه، فإن الدرس البلاغي يساهم في تدريب المتعلم على الانتباه إلى طريقة بناء الخطاب، واختيار الألفاظ، وترتيب الحجج، وتوظيف الصور الشعرية من تشبيهات واستعارات، واستعمال أساليب الاستفهام والأمر والنهي والنداء بما لها من معاني استلزامية كالإرشاد والنصح والتحذير والدعوة إلى التضامن والتسامح وغيرها. إذ لا تقتصر أهمية ذلك على تحليل النصوص الأدبية فقط، بل تمتد إلى مختلف الخطابات، كالخطاب الإشهاري والإعلامي والتربوي والاجتماعي. وبذلك يصبح بناء الوعي من أهم المفاهيم التي تتقاطع فيها البلاغة مع التنمية.

أ-1 البلاغة والتضامن المجتمعي

يقول الشاعر معروف الرصافي:

- يعيش الناس في حال اجتماع فتحدث بينهم طرق انتف . . . ع
- وتكثر للتعاون والتف . . . عادي على الأيام بينهم الدواع . . . ي
- ولو ساروا على طرق انفراد لما كانوا سوى هَج رع . ع
- رأيت الناس كالبنيان يسم . . . و بأحجار تُسَيَّع بالسي . . . ع
- فيُمسك بعضه بعضاً فيَهْ . . . وى ويمنع جانبيه من التداء . . . ي
- كذاك الناس من عجم وعُرب جميعاً بين مرء . . . ي وراع
- قد اشتبكت مصالحهم فك . . . ل لكل في مجال العيش . . . ع
- بذاك قضى اجتماع الناس لما أن اعتصموا بمجل الاجتماع
- يساند بعضهم في العيش بعضاً مساندة ارتفاق وانتف . . . ع
- فتعلو في ديارهم المباز . . . ي وتُحْصَب في بلادهم المراعي¹

لقد تناول الشاعر ثلة من القيم الإنسانية النبيلة من أجل إشاعتها بين الناس، ومن أهمها قيمة التضامن التي تحيل على التعاون والتآزر لضمان وتماسك المجتمع واستقراره، معتمداً في بنائه لهذه القصيدة على بعض الصور البلاغية كالتشبيه الوارد في البيت الرابع، إذ يشبه الناس بالبنيان في السمو والعلو والتماسك موظفاً أداة للتشبيه (الكاف)، إذ إن الغرض من هذا التشبيه لا يقتصر على جرد مكونات هذه الصورة البلاغية (المشبه/المشبه به/الأداة/وجه الشبه نوع التشبيه)، بل يتعداه إلى رصد قيمة التضامن وإبراز أهميتها في بناء المجتمعات، فهو يوضح قيمة عيش الإنسان داخل الجماعة من أجل التعاون وتبادل المنفعة، فالإنسان بحاجة

¹ ديوان الرصافي - الجزء الثاني شرح و تعليقات - مصطفى علي - بغداد ص 130-131 عن الكتاب المدرسي منار اللغة العربية السنة الأولى من سلك البكالوريا ص 127

ماسة إلى الاجتماع والتضامن لمواجهة مايعترض حياته من صعوبات، فيؤكد أن تحقيق المنفعة العامة ورفاهية العيش رهين بتحلي الأفراد بقيم التضامن والتآزر. ولعل هذا ما دعا إليه الشاعر إيليا أبو ماضي في وصفه لحال الفقير ومايتكبده من متاعب الحياة وثقلها، مستنجداً بالغني الذي يغتر بحيازة المال وجمعه مذكراً إياه بضرورة المبادرة إلى التضامن، واحتساب أجر العطاء ومقابله عند الله سبحانه وتعالى. موظفاً بعض الصور الشعرية كالتشبيه والاستعارة، من خلال قوله:

● قد عضه اليأس الشديد بنابه في نفسه والجوع في الأحشاء

● ييكي بكاء الطفل فارق أمه ما حيلة المحزون غير بكاء¹

معلوم أن الشاعر في هذين البيتين يصف حال الفقير المحتاج لتضامن الغني تفريجاً لمعاناته، مستعملاً تارة الاستعارة (المستعار له: اليأس الشديد/ المستعار منه محذوف تقديره الحيوان المفترس/ القرينة : عضه بنابه/ نوع الاستعارة مكنية). وتارة أخرى التشبيه بحيث يشبه بكاء الفقير بكاء طفل فارق أمه، وكلاهما ييكي لفقد الدفء والأمن والغذاء. تعبيراً عن شدة معاناة الفقير حين يجتمع عليه اليأس مع مرارة الجوع ووطأته فيحدثان فيه ألماً يشبه الوجع الذي تجده الفريسة حين يغرز فيها المفترس أنيابه. مستثيراً عاطفة الغني لمؤازرة حال الفقير حينما خاطبه فقال:

● قل للغني المستعز بماله مهلاً لقد أسرفت في الخيلاء

● انصر أخاك فإن فعلت كفيته ذل السؤال ومنة البخلاء

● كم ذا الجحود ومالكم رهن البلا وبم الغرور وكلكم لفناء

● إن الضعيف بحاجة لنضاركم لا تقعدوا عن نصرة الضعفاء²

وحري بالذكر أن هذه الأبيات الشعرية السابقة ليست مجرد دعوة أخلاقية عابرة، بل هي نموذج تطبيقي بارز لدور الدرس البلاغي في خدمة التنمية المجتمعية. بحيث نجح الشاعر في توظيف علوم البلاغة الثلاثة لتحويل القيمة المجردة إلى سلوك اجتماعي ملموس. فمن ناحية علم المعاني فقد وظف أساليب الأمر والنهي والتحقيق "مطابقة الكلام لمقتضى الحال". فخاطب الفئة المتسببة في المشكلة بقوله "قل للغني المستعز بماله"، ثم انتقل إلى الأمر الحاسم "انصر أخاك" والنهي "ولا تقعدوا عن نصرة الضعفاء" من أجل تحفيز الفرد على الفعل وتحويله من متلق سلبي إلى فاعل إيجابي في عملية التكافل الاجتماعي. أما فيما يخص علم البيان فقد لجأ الشاعر إلى الصورة البلاغية لتقريب معنى زوال النعمة وتجسيده في ذهن المتلقي. ويتجلى ذلك في قوله: "مالكم رهن البلا"، بحيث شبه المال بشيء مرهون سيضيع لا محالة. هذه الاستعارة أقوى أثراً من القول التقريري المباشر، لأنها تولد الإحساس بالخطر والخسارة الوشيكة، مما يدفع الغني إلى مراجعة سلوكه والمسايرة بالإتفاق في أوجه الخير قبل فوات الأوان. وهكذا تساهم الصورة البيانية في تحقيق الهدف التنموي الاقتصادي المائل في إعادة توزيع الثروة ومحاربة ظاهري الفقر والاكتمال. ومن ناحية علم البديع، فقد وظف الشاعر الطباق "الغني" و"الضعيف" و"البخلاء" و"النصار" وذلك لإظهار التفاوت الطبقي

¹ ديوان إيليا أبو ماضي الأعمال الشعرية الكاملة، إيليا أبو ماضي، جمع الشعر وقدم له عبد الكريم الأشتر، ط1، الكويت، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2008، الديوان الثاني ص 302

² ديوان إيليا أبو ماضي الأعمال الشعرية الكاملة، إيليا أبو ماضي، جمع الشعر وقدم له عبد الكريم الأشتر، ط1، الكويت، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2008، الديوان الثاني ص 305-306 بتصرف

وإحداث هزة وجدانية لدى المتلقي للتأمل في أوضاع المجتمع المزرية والتفكير في الحد منها. إن تحليل هذه الأبيات يثبت أن البلاغة ليست ترفاً لفظياً، بل هي وسيلة فعالة لتوجيه المجتمع. فهي تشخص الداء المتمثل في التكبر والبخل، وتصف الدواء المتجسد في التضامن والنصرة في قالب مغري ومؤثر يضمن قبوله. ومن هنا يتضح جلياً أن أي مشروع تنموي ناجح لا يمكن أن يستغني عن الخطاب البلاغي، لأنه الجسر الذي يحول الأهداف التنموية من حبر على ورق إلى واقع معيش وسلوك يومي متداول.

أ-2 البلاغة وإدارة الاختلاف

يعد الاختلاف من الظواهر الملازمة للحياة الإنسانية والاجتماعية، إذ ينشأ عن تعدد الرؤى وتباين المرجعيات وتنوع المواقف والتصورات والقيم والمصالح. ولا يمثل الاختلاف في ذاته عائقاً أمام التواصل أو بناء المجتمع، بل يمكن أن يكون عنصراً من عناصر الإثراء الفكري والثقافي، متى أدير في إطار من الحوار المسؤول وتقبل الآخر واحترام حقه في التعبير. غير أن الاختلاف قد يتحول في غياب آليات التواصل الرشيد إلى نزاع يهدد العلاقات الاجتماعية وينقص من إمكانيات التفاهم والتعاون. ومن هنا تبرز أهمية البلاغة بوصفها علماً وممارسة تتجاوز حدود العناية بجمال التعبير إلى بناء الخطاب الفعال القادر على التواصل والتأثير والإقناع. فالبلاغة، في جوهرها، تقوم على مراعاة المقام، وفهم المتلقي، وحسن اختيار الألفاظ والأساليب، وتنظيم الحجج، بما يجعلها آلية أساسية في تدبير التواصل بين المختلفين. وإذا كان الاختلاف أمراً طبيعياً في المجتمع، فإن حسن إدارة هذا الاختلاف يتطلب خطاباً قادراً على عرض المواقف بوضوح، ومناقشة الآراء بالحجة، واستيعاب وجهات النظر المتباينة، والانتقال من منطق المواجهة والإقصاء إلى منطق الحوار والتفاهم. ولعل هذا ما أثبتته الشاعر عبد الرحمن ابن رستم الدالي في كيفية إدارة النقاش عند حدوث اختلاف في وجهات النظر، داعياً إلى الهدوء والابتعاد عن التعصب:

إذا جادلت يوماً عن طريق فقل قولاً بليغاً في انسجام

ولا تغضب إن خالفت يوماً رأياً فإن الحق يظهر بالخصام

وكن سمحاً إذا ما رمت فهما فما كل العقول على مقام¹

تكتسي هذه الأبيات الشعرية التي أوردها ابن رستم الدالي في "أدب الجدل والإنصاف" أهمية بالغة على مستوى تأسيس خطاب أخلاقي منضبط لإدارة الخلاف. فهي لا تقتصر على تقديم وصايا فردية، بل تؤسس لرؤية تنموية قوامها تحويل الاختلاف من عامل تفكيك إلى أداة بناء. وقد استطاع الشاعر توظيف علوم البلاغة الثلاثة توظيفاً دقيقاً لخدمة هذه الغاية، مما يجعل أبياته الشعرية نموذجاً تطبيقياً لعلاقة الخطاب بالتنمية المجتمعية. فعلى مستوى علم المعاني، فقد حرص الشاعر على "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" من خلال توظيف أسلوب الأمر والنهي في إطار شرطي. فالأمر في قوله: "فَـقُلْ قَوْلًا بليغاً في انسجام" يقتضي ترشيد الخطاب والتزامه بالمنطق والاتساق، باعتبار ذلك شرطاً أساسياً لنجاعة الحوار. في المقابل، يرد النهي في قوله: "وَلَا تَغْضَبْ إذا خَالَفتَ رأياً" بما يستلزمه من وجوب ضبط النفس وكظم الغيظ، وذلك لما للانفعال من دور سلبي في إفساد مسار النقاش

¹ مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ' منظومة ابن رستم الدالي في الحكم والآداب الشرعية' العلامة اليمني عبدالله بن محمد الحبشي، دار النشر المجمع الثقافي (أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة) بالاشتراك مع در ابن حزم (بيروت) ص412

وتأجيج الصراع. وعلى صعيد علم البيان، لجأ الشاعر إلى التعليل الحجاجي في قوله: "فَإِنَّ الْحَقَّ يَظْهَرُ بِالْخِصَامِ" حيث أقام علاقة سببية بين الخصام المنضبط وظهور الحق. أما فيما يرتبط بعلم البديع فقد وظف وهذا الأسلوب البياني يساهم في إعادة تأطير مفهوم الاختلاف لدى المتلقي، فينتقل من كونه نقيضة اجتماعية إلى كونه آلية معرفية ومنهجية للوصول إلى الحقيقة. وخلاصة القول، إن تحليل هذه الأبيات يكشف أن البلاغة لا يمكن حصرها في البعد الجمالي فحسب، بل تمتد وظيفتها إلى البعد التداولي والتنموي. فمن خلال ضبط الخطاب، وترشيد الخلاف، وترسيخ قيم الإنصاف والتسامح، يتحول النص البلاغي إلى مشروع مجتمعي يهدف إلى بناء إنسان قادر على الحوار، ومجتمع قادر على تحويل التعدد إلى قوة دافعة للتقدم بدل أن يكون مدخلاً للتنازع والتفكك. وفي هذا السياق لقد عبر الشاعر اللبناني نزار قباني عن ضيقه بالرأي الواحد، وضرورة قبول التعددية واختلاف طبائع البشر من خلال نظمه للأبيات التالية :

لولا اختلاف الناس في أذواقهم لبقيت جميع السلع في الأسواق

فأقبل أخاك على طبيعة نفسه ليس الذكاء بكثرة الإشفاق

إن التفرد للإله وحده والناس بين تباين ووفاق

تندرج أبيات نزار قباني ضمن الخطاب الحدائي الرافض للنمطية والداعي إلى الاعتراف بالآخر. إذ يعبر الشاعر عن ضيقه بالرأي الواحد ويدعو إلى ضرورة قبول التعددية واختلاف الطبائع البشرية. وقد وظف قباني في هذه الأبيات آليات بلاغية متنوعة لترسيخ فكرة أن الاختلاف هو أصل الحياة وشرط ازدهارها، مما يجعل نصه مساهمة فكرية في مشروع التنمية المجتمعية القائمة على التنوع. فنجد أنه قد اعتمد على أسلوب الأمر " فأقبل أخاك على طبيعة نفسه " من أجل ترسيخ قيمة التسامح وقبول الآخر بهدف بناء مجتمع سليم. وإذا انتقلنا إلى علم البديع، نجد الشاعر قد وظف الطباق في قوله: "الناس بين تباين ووفاق" ليؤكد أن المجتمع السليم لا يلغي التباين باسم الوفاق، بل يجمع بينهما. إن أبيات نزار قباني تؤسس لخطاب تنموي قوامه رفض الإقصاء وتقديس التعدد. فمن خلال ربطه بين اختلاف الأذواق وحركة الأسواق، وبين قبول الآخر واستمرار الحياة، يحول الشاعر "الاختلاف" من مشكلة إلى ثروة. وعليه فإن البلاغة هنا لا تكتفي بالإنمتاع، بل تؤدي وظيفة اجتماعية تتمثل في بناء وعي جمعي يؤمن بأن قوة المجتمع تكمن في تنوعه لا في توحيده قسراً، وأن رفض "الغالب الواحد" هو المدخل الحقيقي للتجديد والإبداع.

وتتأكد العلاقة بين البلاغة وإدارة الاختلاف من خلال الوظيفة الحجاجية والتواصلية للخطاب؛ فالحجاج لا يقتضي إلغاء موقف الآخر، وإنما يتيح بناء قناعة مشتركة أو تقريب وجهات النظر من خلال الأدلة والتعليل والاستدلال. كما أن مراعاة مقتضى الحال تقتضي إدراك طبيعة المخاطب والسياق الذي يجري فيه التواصل، وهو ما يجعل الخطاب أكثر قدرة على استيعاب التباين والحد من سوء الفهم والصدام. وبذلك تصبح البلاغة وسيلة لترشيد الاختلاف، لا بهدف القضاء عليه، وإنما بهدف تحويله إلى طاقة للحوار والتفاعل وإنتاج الحلول.

ولا تقف أهمية هذا الدور عند حدود التواصل الفردي، بل تمتد إلى المجال المجتمعي والتنموي؛ ذلك أن التنمية المجتمعية لا تقوم على المؤشرات الاقتصادية والمادية وحدها، وإنما تحتاج كذلك إلى بناء الإنسان، وتعزيز مشاركته، وترسيخ قيم التعاون

والمسؤولية والحوار والثقة المتبادلة. وفي هذا الإطار، يمكن للخطاب البلاغي الواعي أن يساهم في تشكيل ثقافة مجتمعية قادرة على تدبير التباين، وإشراك مختلف الفاعلين، وتشجيع الحوار حول القضايا المشتركة، بما يعزز فرص التعاون ويهيئ بيئة اجتماعية أكثر قدرة على تحقيق التنمية.

أ-3 البلاغة والحوار التنموي

يمثل الحوار التنموي في جوهره فعلا تواصليا قبل أن يكون فعلا اقتصاديا أو تقنيا. فلا يمكن تصور أي مشروع تنموي ناجح بعيدا عن بنية تواصلية قادرة على استمالة الفرد وتحويله من مجرد متلق سلبي إلى شريك فاعل في تنمية المجتمع. وهذا لن يتأتى إلا بتوظيف البلاغة كآلية أساسية في بناء الفعل التنموي. وقد تجلّى مفهوم الحوار البناء في أبي صوره في قول الشاعر نسيب عريضة:

يا أخي يارفيق عزمي وضعفي سر نكابد إن الشجاع المكابد
فإذا ما عيبت تسندي ظهري وأنا بعد ذا لضعفك ساند
سر تقدم لكي نخط طريقا لأبوة الهوان عند الشدائد
فلنسر فلنسر وإلا هلكنا قبل إدراكنا المني والمواعد

إن التحليل البلاغي لهذه الأبيات يكشف عن بنية حجاجية تنموية متكاملة، حيث ينتقل الخطاب من بنية فوقية قائمة على التمييز بين فاعل مانح ومتلق مستفيد، إلى بنية أفقية قوامها الاعتراف المتبادل المؤسس ببناء الأخوة والرفقة، ثم يؤسس لمفهوم الاتحاد الوجداني والمصيري عبر إلغاء الثنائية الضدية بين القوة والضعف وجعلهما معطى مشتركاً يتداول فيه الطرفان دور الساند والمسنود بحسب الحاجة الظرفية لا بحسب الموقع المؤسسي، ليخلص في الأخير إلى تحويل الحوار من فعل تقريرية وصفي إلى فعل إنجازي تحفيزي يربط الفعل التنموي بشرط النجاة الجماعية، وبذلك تقدم الأبيات درسا بليغا في أن الحوار التنموي الناجح ليس نقلا للمعلومة بل بناء لعقد بلاغي يقوم على المساواة في المقام والاشتراك في الضعف والقوة.

النتائج:

- تجاوز الدرس البلاغي لحدوده الجمالية التقليدية، إذ لم يعد مقتصرًا على دراسة مظاهر الفصاحة والبيان، بل أصبح أداة معرفية وتواصلية تسهم في فهم الخطابات وتحليلها وتقويم أثرها في الواقع الاجتماعي.
- رصد العلاقة القائمة بين البلاغة والتنمية المجتمعية؛ فالخطاب البلاغي الفعال يؤدي دورًا محوريًا في توجيه السلوك الفردي والجماعي، وتعزيز الوعي بالقضايا المجتمعية المختلفة.
- إسهام الدرس البلاغي في تنمية الكفايات التواصلية والحجاجية لدى الأفراد، بما يمكنهم من التعبير عن أفكارهم بوضوح، والمشاركة الإيجابية في الحوار والنقاش العمومي.
- دور البلاغة في ترسيخ منظومة القيم، من خلال ما تتيحه من آليات للتأثير والإقناع، في نشر قيم المواطنة والتسامح والتضامن والمسؤولية الاجتماعية.
- أهمية توظيف البلاغة في المجالات التربوية والإعلامية والتنمية، لما توفره من أدوات تساعد في تبليغ الرسائل وتحقيق التأثير الإيجابي في المتلقين.
- إسهام الدرس البلاغي في تعزيز الهوية اللغوية والثقافية من خلال المحافظة على اللغة العربية والارتقاء بأساليب استعمالها في مختلف مجالات التواصل والمعرفة.
- الحاجة إلى تجديد الدرس البلاغي المعاصر وربطه بالقضايا المجتمعية الراهنة، بما يجعله أكثر قدرة على تحقيق أهداف التنمية وبناء مجتمع المعرفة.

المراجع والمصادر:

- الإدارة المحلية واستراتيجياتها، الإسكندرية، الناشر المعارف، 1987،
- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، ط1 منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان
- التنمية المستدامة مفهومها- أبعادها- مؤشرات، مدحت أبو النصر وياسمين مدحت محمد، المجموعة العربية للتدريب والنشر، القاهرة، ط1، القاهرة، 2017
- ديوان الرصافي- الجزء الثاني شرح و تعليقات- مصطفى علي- بغداد ص 130-131 عن الكتاب المدرسي منار اللغة العربية السنة الأولى من سلك البكالوريا
- لسان العرب، ابن منظور، مادة (درس)، ج6، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، مادة (بلغ)، ج1، دار المعارف، ط1، القاهرة، مصر
- معجم مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني، المحقق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، 1430-2009، ط4 (بلغ)
- مفهوم التنمية، أبعادها واستراتيجياتها -المغرب أنموذجا- نبيل متوكيل ومولود بنطالب، مجلة حمورابي للدراسات، العدد 50، السنة الثالثة عشر، 2024،
- الإدارة المحلية واستراتيجياتها، مصطفى الجندي، الإسكندرية، الناشر المعارف، 1987
- ديوان إيليا أبو ماضي الأعمال الشعرية الكاملة، إيليا أبو ماضي، جمع الشعر وقدم له عبد الكريم الأشتر، ط1، الكويت، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2008، الديوان الثاني
- ديوان إيليا أبو ماضي الأعمال الشعرية الكاملة، إيليا أبو ماضي، جمع الشعر وقدم له عبد الكريم الأشتر، ط1، الكويت، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2008، الديوان الثاني
- مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ' منظومة ابن رستم الدالي في الحكم والآداب الشرعية' العلامة اليمني عبدالله بن محمد الحبشي، دار النشر المجمع الثقافي (أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة) بالاشتراك مع در ابن حزم (بيروت)
- مفهوم التنمية، أبعادها واستراتيجياتها -المغرب أنموذجا-، نبيل متوكيل ومولود نبينطالب، مجلة حمورابي للدراسات، العدد 50، السنة الثالثة عشرة، 2024